

قيامه الآخرين»..رواية تشعرن الأسطورة»





اقرأ هذه الرواية «قيامه الآخرين» للكاتبة إيمان اليوسف على نحو أفقي إن جازت العبارة، ففيها أكثر من مستوى للقراءة «دار ممدوح عدوان، ودار سرد للنشر – الطبعة الأولى 2019» أولاً: المكان الإماراتي أو الروح المكانية الإماراتية، ثانياً: بيئة البحر ومفرداته، ثالثاً: شعرية اللغة الروائية، رابعاً: الإحالات أو المرجعية الأسطورية والفلسفية، خامساً: الجن بوصفه ظاهرة شعبية ممتدة في الكثير من السرديات الإماراتية، سادساً: القدرة الملحوظة للكاتبة إيمان اليوسف على الوصف.. وبعد ذلك أترك بطلة الرواية ذات الضمير المتكلم، وأترك الأحداث المتقاطعة المتشابكة بين الإمارات «دبي» والكويت وقطر.. أترك كل ذلك للقارئ.

هذه الرواية ليست حكاية؛ بل تخرج في الكثير من الأحيان عن طبيعة القص أو السرد، لتتحول إلى «نص».. نصّ فيه أكثر من مستوى قرائي أفقي كما اقترحت، يمتزج فيه أحياناً الواقعي بالمتخيل. تختلط فيه الصور مع الظلال، عبر شخصيتين توأم: هما ميعاد وأميرة اللتان تنقسمان إلى شخصيات أخرى، أكثرها غموضاً ذلك الرجل الملثحي. تبدأ الرواية أو هكذا قرأت أو هكذا أريد أن أقرأ من منطقة «برّ دبي» وتحديدًا «جميرا» «.. ابنة الماء، سليله البرّ، يخبرني أبي أن البحارة كانوا يستدلّون عليها دون غيرها من شدة بياض شواطئها وتوهجها».

الرواية أيضاً كما هي رواية مكان إماراتي بامتياز، وتحديدًا هو مكان حدائي معاصر، هي أيضاً رواية استعادات ثقافية ومشهدية لقصة الطوفان «حين يفور التّور» وهي، كما أشرت قبل قليل رواية مستويات عدة بجمل قصيرة تماماً. نعم إن ما يميّز هذه الرواية هو سرعتها، والسرعة سواء أكانت في الأحداث أم كانت في الكتابة نستشعرها، أي نستشعر هذه السرعة، من خلال الجمل القصيرة.

• سياق الزمن

جملة إيمان اليوسف سريعة قصيرة، لا تقترب أبداً من السرد ذي الجمل الطويلة الاستطردية، كما لو أنها تسابق الزمن والوقت معاً، لكي تحيط بالعوالم الأفقية «الشعرية».. وأولها عالم المكان. أولاً: إنه مكان السوق في دبي. المكان الشعبي الحبيب لقلوب أهل دبي، وساردة الرواية هنا شغوفة بالتصوير، أقصد التصوير الفوتوغرافي «فهي مصوِّرة»، لكنها أيضاً مصورة بارعة على صعيد الكتابة: «.. لم اعتد تصوير الوجوه. أرتبك في حضرة الأشخاص؛ لذا فإن جميع

صوري من نصيب الحيوانات أو الأشجار أو الشوارع والأبنية. معرضي الأول خصصته للتراث. صور من الخور والسوق القديمة وسوق الذهب ومحال السطوة والأقمشة والمخاوير في سوق عكاظ، مقابل عبايات الأعراس المزركشة في سوق نايف».

مكان السوق هو مكان البشر وأصواتهم وألوانهم وسلوكياتهم المحكومة عادة لثقافة السوق نفسها، ومن روح هذا المكان كان هذا المشهد الحيوي الذي يحبه كل من عرف السطوة، وبرّ دبي، وسوق نايف، وسوق الذهب. ثانياً: الرواية مشبعة باللغة الشعرية. شعرية السرد أو سرد الشعر. هذا باختصار وجه رواية «قيامه الآخرين» اللغوي.. تقول في أحد المشاهد: «ماذا لو بدأ الطوفان من دموع القتلى؟» ثم «يتسرّب الطوفان الاثني، هذه المرة بلا أخشاب ولا نوح» ثم هناك «لازمة» أو ما يشبه «اللازمة» التي تُحيلنا إلى حاجة المصورّ الفوتوغرافي والمصورّ الرسام إلى الضوء «في الظلام لا شيء سوى وجهي تنيره شاشة الهاتف» ثم هناك «لازمة» ثانية: «ثم لم يبق شيء. القيامة ألا يبقى شيء سوانا»، ولعلّ شفافية الكاتبة الشعرية تتمثل أكثر ما تتمثل في حساسيتها تجاه ثنائية الامتلاء والفراغ: «كل شيء في مكانه. مرتب ونظيف وشهيّ، لكنها كلّها ناقصة. لم يكن واضحاً مصدر ذاك الفراغ الشاسع الذي يعيش في جنبات الأثاث». تستشعر الكاتبة هنا «بالطبع على لسان الساردة» حجم الفراغ في الامتلاء. ثمة امتلاء بالأثاث، امتلاء بالكلمات؛ بل وقد يكون امتلاءً بالصحة أو امتلاءً بالغرور، ولكن كل ذلك هو فراغ في فراغ. قوة الاستشعار هذه هي في حدّ ذاتها طاقة شعرية.

البحر ومفرداته مشترك روائي وقصصي في كل السرديات الإماراتية بلا مبالغة، أينما اتجهت بوجهك ترى البحر ومفرداته، ومن مفردات البحر في السرد الإماراتي «النوخة» ورمزياته وتاريخه، وذاكرته عند أهل المنطقة. المشهد مشحون بالتوتر الذي يفرضه الخوف من البحر، تتحدث أيضاً عن كائن بحري خرافي «خطاف رقّاي» المخلوق الذي يظهر في هيئة شرّاع، وأحياناً سفينة كاملة، ولا يكون ذلك إلا في عرض البحر. «يعترض خطاف رقّاي السفن. يتأرجح في الماء كأنه محمل ضخم»، «تتضخم اهتزازاته، صعوداً وهبوطاً، كمهدّ خالٍ يئن، تتوالى حركاته المتكررة كالموج الغاضب، حتى يرتطم بالسفينة، فيفلقها نصفين مهما كانت خبرة النوخة، فلا أحد أعظم من هذا المخلوق اللعين».

من البحر إلى اليابسة؛ حيث الجن على الأرض، لا بل الجن في كل مكان، لكنه يتمثل على الأرض أكثر في الثقافة الشعبية الإماراتية. هذه الجنّة مثلاً، «أم الصبيان الجنية التي تدخل البيوت على هيئة دجاجة تتبعها أفراسها، فتقتل الأطفال أو تجعلهم تعساء ببقية حيواتهم، ثم، النعّاقة، تلك البومة الضخمة الجسد ذات وجه العجوز الحزينة التي تحضر البؤس والشؤم معها أينما حلّت»، «أما أمّي فيرتفع صوتها بالقرآن والأذكار، تظن أن بي مساً أو عيناً. ترقيني كل يوم. «تحمل لي من ماء البحر لكي أستحم، أظهر من عيونهم وشهقاتهم وشياطينهم وشياطيني والجن العاشق والجن الكاره

• مشهديات

في الرواية هناك أبعاد أسطورية وفلسفية.. فكرة الخلود مثلاً.. «خذ خلود كونديرا»، لكنه هنا الخلود العابر. السريع، تماماً مثل جملة إيمان القصيرة.... كنت حبلى بولدي الثاني، في البتراء بصحبة زوجي، حين غمزي ووكز ذراعي، مشيراً إلى الصخور العالية المنحوتة بإعجاز بشري فاخر، أما نحن -أخبرني - فسنترك أكواماً مهولة من صور طعامنا التي - التقطناها عبر الهاتف كإرث حضاري يوثّق خلودنا...

رواية مكان، ورواية مشهديات وصور وانتقالات بصرية، ونفسية، وشعرية، وتقرأ أيضاً بشرط مفاجئ أو ربما يكون مفاجئاً للقارئ، وهو أن يكون قارئاً للأسطورة، والأهم من ذلك قارئاً للأمكنة الإماراتية التي يتحرك فيها هذا النثر العذب